11 - السيدة رفيدة الأنصارية

المبايعة اللأنصارية

اسمها رفيدة الأنصارية، ويقال لها رفيدة الأسلمية، وقد ورد اسمها على لسان رسول الله ﷺ يوم الخندق.

كانت واحدة من فواضل نساء الأنصار الذين قال عنهم رسول الله ﷺ فيما حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَالنَّاسُ سَيَكْثُرُونَ وَيَقِلُّونَ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»[1].

أسلمت رفيدة رضي الله عنها في مسجد رسول الله ﷺ وبين يديه وكانت بين النسوة اللاتي بايعن رسول الله ﷺ على طاعة الله وطاعته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: 12]، وشرط رسول الله ﷺ عليهن فَقَالَ: «**وَلا تَغْشُشْنَ أَزْوَاجَكُنَّ**»، فبايعنه على ذلك ثم انصرفن.

وروى الإمام أحمد قال: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَلِيطُ بْنُ أَيُّوبَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ أُمِّهِ، عَنْ سَلْمَى بِنْتِ قَيْسٍ - وَكَانَتْ إِحْدَى خَالاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - قَدْ صَلَّتْ مَعَهُ

(1) رواه: البخاري/كتاب: المناقب/باب: قول النبي ﷺ: «اقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»/برقم: (3517).

الْقِبْلَتَيْنِ، وَكَانَتْ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، قَالَتْ: جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَبَايَعْتُهُ، فِي نِسْوَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَلَمَّا شَرَطَ عَلَيْنَا أَنْ لا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا وَلا نَسْرِقَ وَلا نَزْنِيَ وَلا نَقْتُلَ أَوْلادَنَا وَلا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا وَلا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ، قَالَ: **«وَلا تَغْشُشْنَ أَزْوَاجَكُنَّ»**.

قَالَتْ: فَبَايَعْنَاهُ ثُمَّ انْصَرَفْنَا، فَقُلْتُ لامْرَأَةٍ مِنْهُنَّ: ارْجِعِي، فَاسْأَلِي رَسُولَ اللهِ ﷺ: مَا غِشُّ أَزْوَاجِنَا؟«قَالَتْ: فَسَأَلَتْهُ، فَقَالَ: « **تَأْخُذُ مَالَهُ فَتُحَابِي بِهِ غَيْرَهُ**[1]»[2].

الممرّضة المجاهدة

ولما انتهت رفيدة ﷺ من بيعتها لرسول الله ﷺ وإعلان إسلامها اختارت لها عملاً خيِّراً نبيلاً، حين وقفت نفسها على خدمة جرحى المسلمين وتمريضهم، وهل هناك أسمى من تقديم يد العون والمساعدة إلى مريض عاجز عن تدبير شؤون نفسه، أو جريح بذل دمه في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا؟.

إن ما يريده الجريح وهو يكابد الألم والأنين، وربما كان يقترب من عالم الأموات، أن يسمع كلمة مواساة طيبة، تخفف آلامه، وتبعث في نفسه الأمل في الشفاء، ليعود إلى ممارسة حياته السالفة بهمة ونشاط، وليتابع رسالته في خدمة أهله وذويه، وقيامه بواجبه تجاه دينه.

كانت رفيدة تمثل دور الملاك الوديع الذي يحمل الرحمة والعطف والحنان، إلى كل جريح اضطرته جراحه أن يلازم الفراش.

غزوة الخندق

وكان لها يوم الخندق ذلك الدور الإنساني، لقد حزَّبت قريش

---

(1) تحابي به غيره: أي تهادي بماله غيره.

(2) رواه: أحمد/كتاب باقي مسند الأنصار:/باب: حديث سلمى بنت قيس/برقم: (25882).

الأحزاب، وجيَّشت الجيوش في ذلك اليوم، تريد بذلك النيل من المسلمين، ولكن الله وعد رسوله ﷺ والمؤمنين بنصره، وأمدَّهم بجنده، وما يعلم جنود ربك إلا هو، وقد سجَّل القرآن الكريم ما جرى يوم الخندق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب: 9 - 11].

إن الريح بعض جند الله، فأرسلها إلى المشركين من قريش ومن والاهم، وأغراها بهم في ذلك اليوم المشهود فكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وهدمت بنيانهم، ورأوا أنهم قد أُسقط في أيديهم، وأُحيط بهم، حتى لم يعودوا يدرون ما يفعلون، لقد قدَّروا أنهم قادرون على مناجزة جنود من أهل الأرض، ولكن لا قِبَلَ لهم بالصمود أمام جند السماء.

وها هو الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان يحدثنا عن ذلك اليوم فيما رواه الإمام أحمد عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا ابْنَ أَخِي قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ قَالَ: وَاللهِ، لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا.

قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: **«مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ؟ يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ»**، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: **«مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ؟ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ**

اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ، **أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»**، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ.

فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: **«يَا حُذَيْفَةُ، فَاذْهَبْ، فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا»**. قَالَ: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرٌ وَلا نَارٌ وَلا بِنَاءٌ، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا فُلانُ ابْنُ فُلانٍ».

ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، بَلَغَنَا مِنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ. . . ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ، فَوَثَبَ عَلَى ثَلاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: **«لا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي»** وَلَوْ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ.

قَالَ حُذَيْفَةُ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ. وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، وَانْشَمَرُوا إِلَى بِلادِهِمْ[1].

وقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ

(1) رواه: أحمد/ كتاب: باقي مسند الأنصار/ باب: حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ/ برقم: (22244).

أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [الأحزاب: 25 - 27].

وكانت رفيدة قد اتَّخذت لها خيمةً قريبة من الخندق، ولما أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَرِقَةِ، رَمَاهُ فِي الأَكْحَلِ، فَضَرَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ يَعُودُهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ وَضَعَ السِّلاحَ فَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْغُبَارِ، فَقَالَ: **«وضَعْتَ السِّلاحَ؟ وَاللهِ مَا وَضَعْنَاهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ»** فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فَأَيْنَ؟»** فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

فَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحُكْمَ فِيهِمْ إِلَى سَعْدٍ، قَالَ: «فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ وَالنِّسَاءُ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ عز وجل»**[1].

وقد روى ذلك الإمام أحمد بتفصيل عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ قَالَ: أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ قَالَتْ: خَرَجْتُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَقْفُو آثَارَ النَّاسِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الأَرْضِ وَرَائِي - يَعْنِي: حِسَّ الأَرْضِ - قَالَتْ: فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ، قَالَتْ: فَجَلَسْتُ إِلَى الأَرْضِ فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ، قَالَتْ: وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَتْ: فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ، وَيَقُولُ:

لَيْتَ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا جَمَلْ ... مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الأَجَلْ

قَالَتْ: فَقُمْتُ فَاقْتَحَمْتُ حَدِيقَةً فَإِذَا فِيهَا نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِذَا فِيهِمْ

(1) رواه: مسلم/ كتاب: الجهاد والسير/ باب: جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال القوم من الحصن/ برقم: (3315).

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ سَبْغَةٌ لَهُ – يَعْنِي: مِغْفَرًا – فَقَالَ عُمَرُ: مَا جَاءَ بِكِ؟ لَعَمْرِي وَاللهِ إِنَّكِ لَجَرِيئَةٌ، وَمَا يُؤْمِنُكِ أَنْ يَكُونَ بَلاءٌ أَوْ يَكُونَ تَحَوُّزٌ، قَالَتْ: فَمَا زَالَ يَلُومُنِي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ لِي سَاعَتَئِذٍ فَدَخَلْتُ فِيهَا، قَالَتْ: فَرَفَعَ الرَّجُلُ السَّبْغَةَ عَنْ وَجْهِهِ فَإِذَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، فَقَالَ: يَا عُمَرُ، وَيْحَكَ! إِنَّكَ قَدْ أَكْثَرْتَ مُنْذُ الْيَوْمَ، وَأَيْنَ التَّحَوُّزُ أَوْ الْفِرَارُ إِلا إِلَى اللهِ ﷻ؟.

قَالَتْ: وَيَرْمِي سَعْدًا رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَرِقَةِ بِسَهْمٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْعَرَقَةِ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ، فَدَعَا اللهَ ﷻ سَعْدٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ قُرَيْظَةَ، قَالَتْ: وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَتْ: فَرَقَى كَلْمُهُ.

وَبَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الرِّيحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَكَفَى اللهُ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ ﷻ قَوِيًّا عَزِيزًا، فَلَحِقَ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ بِتِهَامَةَ، وَلَحِقَ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ وَمَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ، وَرَجَعَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ فَتَحَصَّنُوا فِي صَيَاصِيهِمْ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَضَعَ السِّلاحَ، وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَضُرِبَتْ عَلَى سَعْدٍ فِي الْمَسْجِدِ وَقَامَتْ رُفَيْدَةُ الأَسْلَمِيَّةُ بِتَمْرِيضِهِ.

قَالَتْ: فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَإِنَّ عَلَى ثَنَايَاهُ لَنَقْعُ الْغُبَارِ، فَقَالَ: **«أَقَدْ وَضَعْتَ السِّلاحَ؟ وَاللهِ مَا وَضَعَتْ الْمَلائِكَةُ بَعْدُ السِّلاحَ، اخْرُجْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَاتِلْهُمْ»** قَالَتْ: فَلَبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأْمَتَهُ[1]. وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ أَنْ يَخْرُجُوا، ثُمَّ أمر مناديه أن ينادي: **«إن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر إلا في بني قريظة»**[2].

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَرَّ عَلَى بَنِي غَنْمٍ، وَهُمْ جِيرَانُ الْمَسْجِدِ حَوْلَهُ،

(1) اللأمة: سلاح الحرب.

(2) زيادة من تاريخ الطبري (2/ 581).

فَقَالَ: «مَنْ مَرَّ بِكُمْ؟» فَقَالُوا: «مَرَّ بِنَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ» وَكَانَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ تُشْبِهُ لِحْيَتُهُ وَسِنُّهُ وَوَجْهُهُ جِبْرِيلَ عليه السلام.

قَالَتْ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ، وَاشْتَدَّ الْبَلاءُ، قِيلَ لَهُمْ: انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ، قَالُوا: نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»** فَنَزَلُوا.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ بَعْضَ قَوْمِهِ لِيَأْتُوهُ بِهِ مِنْ خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ الأَسْلَمِيَّةِ، فَأُتِيَ بِهِ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَمْرٍو، حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النَّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ، قَالَتْ: وَأَنَّى لا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، وَلا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمْ الْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: قَدْ آنَ لِي أَنْ لا أُبَالِيَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ.

قَالَ: فَلَمَّا طَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: **«قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ، فَأَنْزِلُوهُ»** فَقَالَ عُمَرُ: سَيِّدُنَا اللهُ عز وجل، قَالَ: **«أَنْزِلُوهُ»** فَأَنْزَلُوهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«احْكُمْ فِيهِمْ»** قَالَ سَعْدٌ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ عز وجل وَحُكْمِ رَسُولِهِ»**.

وفي رواية أنه قال له: **«يا سَعْدُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ عز وجل مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ»**[1].

قَالَتْ: ثُمَّ دَعَا سَعْدٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، وَإِنْ كُنْتَ قَطَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَاقْبِضْنِي

(1) أرقعة: جمع رقيع، وهو السماء.

إِلَيْكَ، قَالَتْ: فَانْفَجَرَ كَلْمُهُ وَكَانَ قَدْ بَرِئَ حَتَّى مَا يُرَى مِنْهُ إِلا مِثْلُ الْخُرْصِ[1]، وَرَجَعَ إِلَى قُبَّتِهِ الَّتِي ضَرَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَضَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ﷺ قَالَتْ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَعْرِفُ بُكَاءَ عُمَرَ مِنْ بُكَاءِ أَبِي بَكْرٍ وَأَنَا فِي حُجْرَتِي، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: 29].

قَالَ عَلْقَمَةُ: قُلْتُ: أَيْ أُمَّهْ، فَكَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصْنَعُ؟ قَالَتْ: كَانَتْ عَيْنُهُ لا تَدْمَعُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ إِذَا وَجِدَ فَإِنَّمَا هُوَ آخِذٌ بِلِحْيَتِهِ[2].

لقد قال رسول الله ﷺ: **«اجْعَلوا سَعْداً فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ الَّتِي فِي المَسْجِدِ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ»** وقامت رفيدة بتمريض سعد، وبذلت كل ما في وسعها في رعايته، وتخفيف آلامه وكانت تمتلئ بالغبطة وهي ترى رسول الله ﷺ يدخل خيمتها في الصباح ليعود سعداً، ويقول له: **«كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا سَعْدُ؟»**، وفي المساء ليقول له: **«كَيْفَ أَمْسَيتَ يَا سَعْدُ؟»**، ويرد سعد بقوله: الحمد لله، بخيرٍ يا رسول الله.

لقد مكَّنها عملها النبيل من أن تكتحل عينيها مرتين كل يوم بطلعة خير البرية، ورسول الإنسانية، عليه أزكى تحية.

ولم تكن رفيدة تبتغي من عملها ثناءً أو شكوراً من أحد، لأنها موقنة بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وكان يكفيها من جرحاها ومرضاها أن ترى البسمة فوق شفاههم لتشعر بأنها أدَّت واجبها تجاههم على الوجه الأكمل، ولم تقصِّر في خدمتهم.

---

(1) الفائق (1/ 335)، والخُرْصُ: حلقة القِرط.

(2) رواه: الإمام أحمد/كتاب: باقي مسند الأنصار/باب: باقي السند السابق/برقم: (23945).

وروى البخاري عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي الأَكْحَلِ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمْ يَرُعْهُمْ - وَفِي الْمَسْجِدِ خَيْمَةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ - إِلا الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الْخَيْمَةِ، مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ؟ فَإِذَا سَعْدٌ يَغْذُو جُرْحُهُ دَمًا فَمَاتَ فِيهَا[1] رحمه الله وأحسن إليه وجعل الجنة مستقره.

وظلت رفيدة تؤدِّي واجبها الإنساني النبيل حتى وافاها الأجل، رحمها الله تعالى، ورضي عنها.

(1) رواه: البخاري/كتاب: الصلاة/باب: الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم/برقم: (443).

obeikandl.com